بتاريخ 07 رجب 1446
المواسعة و المضايقة

الجلسة 53

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمْ
الْحَمْدُ للّه رَبِّ الْعَالَمِينْ وَصَلَى الله عَلَىٰ سَيِّدَنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّاهِرِين

الحديث المَنظوم في شُموخ رُتبة المعصوم

و بالرّغم من الإمكان الذّاتيّ للسّهو و الإسهاء و النّوم و الإنامة بحقّ المعصوم ـ لأنّه ممكن الوجود و محتاج لربّه ـ إلا أنّها مستحيلة وقوعاً، و ذلك وفقاً لتواتر الرّوايات الصّارخة بقِمَّة شأنهم الرّفيع.

1. و الرّواية التّالية ستَكشف عن هذه الشّأنيّة البليغة: «وَ عَنْهُ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِنَانٍ عَنِ الْحُسَيْنِ بْنِ الْمُخْتَارِ عَنْ زَيْدٍ الشَّحَّامِ قَالَ سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ع يَقُولُ طَلَبَ أَبُو ذَرٍّ رَحِمَهُ اللَّهُ رَسُولَ اللَّهِ ص فَقِيلَ لَهُ إِنَّهُ فِي حَائِطِ كَذَا وَ كَذَا فَتَوَجَّهَ فِي طَلَبِهِ فَوَجَدَهُ نَائِماً فَأَعْظَمَهُ أَنْ يَنْتَبِهَهُ فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَبْرِيَ نَوْمَهُ فَسَمِعَهُ رَسُولُ اللَّهِ فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ: يَا أَبَا ذَرٍّ أَتَخْدَعُنِي، أَمَا عَلِمْتَ أَنِّي أَرَى أَعْمَالَكُمْ فِي مَنَامِي كَمَا أَرَاكُمْ فِي يَقَظَتِي إِنَّ عَيْنِي تَنَامُ وَ قَلْبِي لَا يَنَامُ.»[1]

2. «بَابُ مَا فَرَضَ اللَّهُ عَزَّ وَ جَلَّ وَ رَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ مِنَ الْكَوْنِ مَعَ اَلْأَئِمَّةِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ: الْحُسَيْنُ بْنُ مُحَمَّدٍ عَنْ مُعَلَّى بْنِ مُحَمَّدٍ عَنِ اَلْوَشَّاءِ عَنْ أَحْمَدَ بْنِ عَائِذٍ عَنِ اِبْنِ أُذَيْنَةَ عَنْ بُرَيْدِ بْنِ مُعَاوِيَةَ الْعِجْلِيِّ قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَ جَلَّ: «اِتَّقُوا اللَّهَ وَ كُونُوا مَعَ الصّٰادِقِينَ[2]» قَالَ إِيَّانَا عَنَى.»[3] فقد أطلَق تعالى الكونَ مع الصّادقين مُعدِماً حدوثَ السّهو و الإسهاء تبعاً أيضاً ـ و بكلّ وضوح ـ.

3. «بَابُ أَنَّ أَهْلَ الذِّكْرِ الَّذِينَ أَمَرَ اللَّهُ الْخَلْقَ بِسُؤَالِهِمْ هُمُ اَلْأَئِمَّةُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ: الْحُسَيْنُ بْنُ مُحَمَّدٍ عَنْ مُعَلَّى بْنِ مُحَمَّدٍ عَنِ اَلْوَشَّاءِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَجْلَانَ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَ جَلَّ: «فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاٰ تَعْلَمُونَ[4]» قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ الذِّكْرُ أَنَا وَ اَلْأَئِمَّةُ أَهْلُ الذِّكْرِ وَ قَوْلِهِ عَزَّ وَ جَلَّ: «وَ إِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَ لِقَوْمِكَ وَ سَوْفَ تُسْئَلُونَ»[5] قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ نَحْنُ قَوْمُهُ وَ نَحْنُ الْمَسْئُولُونَ.»[6]

4. بَابُ أَنَّ مَنْ وَصَفَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ بِالْعِلْمِ هُمُ اَلْأَئِمَّةُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ: عَلِيُّ بْنُ إِبْرَاهِيمَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْمُغِيرَةِ عَنْ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ بْنِ الْقَاسِمِ الْأَنْصَارِيِّ عَنْ سَعْدٍ عَنْ جَابِرٍ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَ جَلَّ «هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَ الَّذِينَ لاٰ يَعْلَمُونَ إِنَّمٰا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبٰابِ[7]» قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنَّمَا نَحْنُ «اَلَّذِينَ يَعْلَمُونَ» وَ «اَلَّذِينَ لاٰ يَعْلَمُونَ» عَدُوُّنَا وَ شِيعَتُنَا «أُولُوا الْأَلْبٰابِ».[8]

5. «بَابُ أَنَّ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ هُمُ اَلْأَئِمَّةُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ: عِدَّةٌ مِنْ أَصْحَابِنَا عَنْ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ عَنِ اَلْحُسَيْنِ بْنِ سَعِيدٍ عَنِ اَلنَّضْرِ بْنِ سُوَيْدٍ عَنْ أَيُّوبَ بْنِ الْحُرِّ وَ عِمْرَانَ بْنِ عَلِيٍّ عَنْ أَبِي بَصِيرٍ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: نَحْنُ «اَلرّٰاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ» وَ نَحْنُ نَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ.»[9]

استِنكار المحقّق الخوئيّ لمَضامين الزّيارة الرّجبيّة

و عقيب ما استَجلَبنا في حقّ المعصومين تلك الرّواياتِ العالية ذات المحتَويَات الغالية، فقد انصَدمنا حينما استَنكف المحقّق الخوئيّ ـ سنداً و دلالة ـ لبعض هذه المضامين الوَهّاجة، فلمّا تَناوَل السيّد الزّيارةَ الرّجبيّة القائلة:

«أَخْبَرَنِي جَمَاعَةٌ عَنِ اِبْنِ عَيَّاشٍ قَالَ مِمَّا خَرَجَ عَلَى يَدِ الشَّيْخِ الْكَبِيرِ (النّائب الأوّل:) أَبِي جَعْفَرٍ مُحَمَّدِ بْنِ عُثْمَانَ بْنِ سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنَ النَّاحِيَةِ الْمُقَدَّسَةِ مَا حَدَّثَنِي بِهِ جُبَيْرٌ[10] بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: كَتَبْتُهُ مِنَ التَّوْقِيعِ الْخَارِجِ إِلَيْهِ ـ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ادْعُ فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ رَجَبٍ ـ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِمَعَانِي جَمِيعِ مَا يَدْعُوكَ بِهِ وُلاَةُ أَمْرِكَ الْمَأْمُونُونَ عَلَى سِرِّكَ الْمُسْتَبْشِرُونَ بِأَمْرِكَ الْوَاصِفُونَ لِقُدْرَتِك ..... فَجَعَلْتَهُمْ مَعَادِنَ لِكَلِمَاتِكَ وَ أَرْكَاناً لِتَوْحِيدِكَ وَ آيَاتِكَ وَ مَقَامَاتِكَ الَّتِي لاَ تَعْطِيلَ لَهَا فِي كُلِّ مَكَانٍ يَعْرِفُكَ بِهَا مَنْ عَرَفَكَ لاَ فَرْقَ بَيْنَكَ وَ بَيْنَهَا (الكلمات) إِلاَّ أَنَّهُمْ عِبَادُكَ وَ خَلْقُكَ فَتْقُهَا وَ رَتْقُهَا بِيَدِكَ بَدْؤُهَا مِنْكَ وَ عَوْدُهَا إِلَيْكَ أَعْضَاد وَ أَشْهَادٌ وَ مُنَاةٌ وَ أَذْوَادٌ وَ حَفَظَةٌ وَ رُوَّادٌ فَبِهِمْ مَلَأْتَ سَمَاءَكَ وَ أَرْضَكَ حَتَّى ظَهَرَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْت...»[11]

فشرَع السيّد بقَدحها قائلاً:

«خيرُ بن عبد الله روى توقيعاً عن أبي جعفر محمد بن عثمان بن سعيد، و روى عنه ابن عياش، ذكره الشيخ في مصباح المتهجد في أعمال شهر رجب.

أقول: هو مجهول الحال و ابن عياش ضعيف، و تقدم بعنوان أحمد بن محمد بن عبيد الله، و مضمون التوقيع الذي أوله »اللهم إني أسألك بمعاني جميع ما يدعوك به ولاة أمرك« غريب عن أذهان المتشرعة و غير قابل للإذعان بصدوره عن المعصوم (ع).»[12]

و حيث قد استَعجبنا من هذه المقالة المهزوزة فسنُحاجِجه بالإجابات التّالية:

1. أوّلاً: لقد تَكاثرَت أشباه هذه المضامين البليغة و الرّفيعة لدى أقيانوس الرّوايات كنهج البلاغة و الصّحيفة السّجاديّة و الأدعية المأثورة بحيث ربما لا يَعيها الفلاسفة أيضاً ـ فضلاً عن المتشرّعة ـ كما نُعاين المعاني الدّقيقة و العميقة ضمن «دعاء السّحر» و «الجامعة الكبيرة»[13] فهل نَتخلّى عنها بمجرّد «غرابتها عن أذهان المتشرّعة»؟ بل بالعكس إنّ سُمُوّ بلاغتها و مداليلها الشّامخة قد بَرهنَت على أنّها لم تَصدُر إلا عن المعصوم.

2. ثانياً: ليس المِقياس في حجيّة الأدعية و المضامين أن يُطابق ذهنيّة المتشرّعة تماماً، فكَم من فِقرات و معانٍ ـ ضمن الأدعية و الزّيارات و... ـ لا يَستوعبها سوى المعصوم، نظير الزّيارة الرّجبيّة، فهل يَعني ذلك أنّها مرفوضة و مَنبوذة؟

3. ثالثاً: إنّ فِقرة «لا فرق بينَك و بينَها إلا أنّهم عبادُك» لا تَستدعي ضعفَها إذ «عدم الفرق» يَتحدّث حول الصّفات الإلهيّة فحسب ـ لا عدم الفرق في الذّات الإلهيّ ـ بحيث إنّ المعصوم يَتمتَّع بكافّة السّمات الإلهيّة و يُعدّ مَظهراً مُتجليّاً لأسمائه تماماً فإنّه تعالى قد منَحها له خصّيصاً له، و في نفس الحين يُعدّ من عباده و محتاجِه بالكامل، و ذلك وفقاً لصراحة الأدلّة التّالية:

Ø «عن الصادق عليه السّلام «نحن و الله الأسماء الحسنى التي لا يقبل الله من العباد عملا إلاّ بمعرفتنا».[14]

Ø «قل كفى بالله شهيداً بيني و بينكم و مَن عنده علمُ الكتاب».[15]

Ø «و قال عليه السّلام ـ أيضاً ـ: «إيّاكم و الغلوّ فينا، قولوا: إنّا عبيد مربوبون، و قولوا: في فضلنا ما شئتم».[16] فبالتّالي لم يُشارك المعصوم مع الذّات الإلهيّ كي يُعترَض على محتوَى الزّيارة الرّجبيّة من هذا البُعد، بل الهدف أنّه لا فرق بينه تعالى و بينهم في الصّفات و التّجليّات و الأسماء و ما شاكلها.

بل لو افتَرضنا الاتّحاد من البُعد الذّاتيّ الإلهيّ لأصبح الاستثناء ـإلا أنّهم عبادكـ منقطِعاً بينما الظّاهر المتبادِر المحتوم هو المتّصل أي أنّهم لا يَختلفون في دائرة الصّفات الإلهيّة إلا من جهة العبوديّة و الشَّمّة الإنسانيّة.

أجل لو فسَّرنا «عدم الفرق» باتّحادهم مع الذّات الإلهيّ لَعارَض النّص القرآنيّ التّالي: «ليس كمثله شيئ» فإنّه تعالى قد مسَحَ أبعاد الجسميّة و الإمكانيّة عن ذاته، و لكن الزّيارة الرّجبيّة قد صرَّحت بالاستدراک ـإلا أنّهم عبادكـ كي لا تَتولّد أيّة واهمة ـالمِثليّةـ.

---

[1] بصائر الدرجات، ج1، ص421. و قد أسلَفتُ أشباهَ هذه الرّواية أيضاً، ضمن بَراهين صاحب الجواهر الماضية، فلاحِظها بأسرها.

[2] التوبة: ١٢٠.

[3] كلينى محمد بن يعقوب. الكافي (اسلاميه). Vol. 1. ص208 تهران ـ ايران: دار الكتب الإسلامية.

[4] النحل: ٤٥.

[5] الزخرف: ٤٣.

[6] كلينى محمد بن يعقوب. الكافي (اسلاميه). Vol. 1. ص210 تهران ـ ايران: دار الكتب الإسلامية.

[7] الزمر: ٩

[8] كلينى محمد بن يعقوب. الكافي (اسلاميه). Vol. 1. ص212 تهران ـ ايران: دار الكتب الإسلامية.

[9] نفس اليَنبوع ص213.

[10] و لكن في بعض النّسخ: خير: (الف و ب و هامش ج).

[11] طوسى محمد بن حسن. مصباح المتهجد. Vol. 2. ص803 بيروت ـ لبنان: مؤسسه فقه الشيعه.

[12] خوئى سيد ابوالقاسم. معجم رجال الحديث و تفصيل طبقات الرواة. Vol. 8. ص87.

[13] السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ بَيْتِ النُّبُوَّةِ وَ مَوْضِعَ الرِّسَالَةِ وَ مُخْتَلَفَ الْمَلاَئِكَةِ وَ مَهْبِطَ الْوَحْيِ وَ مَعْدِنَ الرَّحْمَةِ وَ خُزَّانَ الْعِلْمِ وَ مُنْتَهَى الْحِلْمِ وَ أُصُولَ الْكَرَمِ وَ قَادَةَ الْأُمَمِ وَ أَوْلِيَاءَ النِّعَمِ وَ عَنَاصِرَ الْأَبْرَارِ وَ دَعَائِمَ الْأَخْيَارِ وَ سَاسَةَ الْعِبَادِ وَ أَرْكَانَ الْبِلاَدِ وَ أَبْوَابَ الْإِيمَانِ وَ أُمَنَاءَ الرَّحْمَنِ وَ سُلاَلَةَ النَّبِيِّينَ وَ صَفْوَةَ الْمُرْسَلِينَ وَ عِتْرَةَ خِيَرَةِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَ رَحْمَةُ اللَّهِ وَ بَرَكَاتُهُ السَّلاَمُ عَلَى أَئِمَّةِ الْهُدَى وَ مَصَابِيحِ الدُّجَى وَ أَعْلاَمِ التُّقَى وَ ذَوِي النُّهَى وَ أُولِي الْحِجَى وَ كَهْفِ الْوَرَى[13]وَ وَرَثَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَ الْمَثَلِ الْأَعْلَى وَ الدَّعْوَةِ الْحُسْنَى[13]وَ حُجَجِ اللَّهِ عَلَى أَهْلِ الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ الْأُولَى وَ رَحْمَةُ اللَّهِ وَ بَرَكَاتُهُ[13]السَّلاَمُ عَلَى مَحَالِّ مَعْرِفَةِ اللَّهِ وَ مَسَاكِنِ بَرَكَةِ اللَّهِ وَ مَعَادِنِ حِكْمَةِ اللَّهِ وَ حَفَظَةِ سِرِّ اللَّهِ وَ حَمَلَةِ كِتَابِ اللَّهِ وَ أَوْصِيَاءِ نَبِيِّ اللَّهِ وَ ذُرِّيَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ رَحْمَةُ اللَّهِ وَ بَرَكَاتُهُ السَّلاَمُ عَلَى الدُّعَاةِ إِلَى اللَّهِ وَ الْأَدِلاَّءِ عَلَى مَرْضَاةِ اللَّهِ وَ الْمُسْتَقِرِّينَ فِي أَمْرِ اللَّهِ[13]وَ التَّامِّينَ فِي مَحَبَّةِ اللَّهِ[13]وَ الْمُخْلِصِينَ فِي تَوْحِيدِ اللَّهِ وَ الْمُظْهِرِينَ لِأَمْرِ اللَّهِ وَ نَهْيِهِ وَ عِبَادِهِ الْمُكْرَمِينَ الَّذِينَ «لاٰ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ» وَ رَحْمَةُ اللَّهِ.....» (من لا يحضره الفقيه ج2 ص609)

[14] (الكافي: باب النوادر من كتاب التوحيد: ١٤٤/١، ح ٤.)

[15] سورة الرّعد، الآية 43.

[16] بحار الأنوار: ج ٢٥، ص ٢٧٠، الحديث ١٥، نقلا عن الخصال.